رجلان وامرأة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

أما أحد الرجلين فأديب معلم، بلغ الثلاثين أو أربى عليها بقليل؛ فهو في كمال بنيته وعقله. كان على شيء من وسامة الوجه وجمال الهيئة، وعلى أشياء من سهولة الخلق ولطف الروح، وبراعة الظرف، وعذوبة النطق. ولعل أظهر ما يميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل؛ فما أكثر ما يجيب عن أكثر ما يسمع ابتسامة حيية. فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين في خفوت وحذر، فتذهبان في ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة في الدغل الشاجن، أو القطرة العذبة في الموج الصاخب، فيزداد امتعاضا وانقباضا ووحشة.

ومن العجيب أن حياءه كان يغري به النساء؛ لأنه كان حياء من نوع غريب، لا ينم عن ذلة أو ضعة أو جبن؛ وإنما ينم عن حشمة فيها عزة، وعن رقة فيها ترفع، وعن طيبة فيها شجاعة. فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه: يحسبنه استخفافا وراءه كبر، أو انصرافا تحته سر. والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه. لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن أخرى، تتعاقب دائبة على قلبه البريء، فتفنى فناء الصوت في قفرة، أو ترتد ارتداد السهم عن صخرة. فإذا أسقطت الألفة من انقباضه، وأزالت الصداقة من احتشامه، وجدته محدثا عذب الحديث، مفاكها حلو الفكاهة، يصل ما بين قلبه وقلب سامعه بكلام رقيق الحواشي، وصوت رخيم النغم. وهو إلى ذلك شاعر يحس الحياة بقوة، وفنان يفهم الجمال بعمق، وإنسان يأخذ الصداقة بإخلاص. ومن أجل ذلك كثرت خلواته، لأنه فضلا عن حيائه لا يجد اللذة إلا في التأمل، ولا السعادة إلا في العمل؛ ومن أجل ذلك أيضا قلت صداقاته، لأنه لا يحب إلا عن ميل، ولا يصادق إلا عن حب.

* * *

وأما الآخر فطبيب ناشئ لا يزال في ربيعه الخامس والعشرين، جميل الصورة، أزهر اللون، ممشوق القوام. يروعك منه أول ما يروعك شعره الفاحم المتموج، وثغره الباسم النضيد، ووجهه السوي القسيم،

وسمته الهادئ الوديع؛ ولكنه لا يزيد على تمثال أتقن المثال صنعه وسوى خلقه. ليس فيه روح يقبض الحياة في جسمه، ولا قلب يدفق الشعور في دمه، ولا لسان يبث البيان في حديثه. إنما يتحرك وكأنه لا يحس، وينفعل وكأنه لا يدرك، ويتكلم وكأنه لا يفكر.

ومن وجوه الشبه بينه وبين التمثال أيضا فقد الإرادة؛ فإن حملته [illegible] وإن نقلته فينتقل، وتقوده [illegible] لا يمتنع ولا يعترض ولا يتحرك. وهو [illegible] بالقمر الذي يستمد عن الشمس [illegible] بالقمر [illegible] من [illegible]؛ ضعيف [illegible] فلا هو [illegible] ولا [illegible] فلا هو [illegible] ذلك كله [illegible] السطر فلا [illegible] ولا [illegible] فلا طموح ولا [illegible] ولا [illegible]؛ [illegible] ولا [illegible]

[illegible]

وأما [illegible] مشرين، أدركت [illegible] على التجارة [illegible] فقطا لا بأس به.

جميلة [illegible] حمله الله في [illegible] جسمها

فلا يقيد البصر ولا يحرك القلب. ومع ذلك تستطيع أن تقول إنها فتاة: فتاة ببشرتها الخمرية الرائقة؛ فتاة بعينيها الحوراوين اللتين خلقتا لتسحرا لا لتنظرا؛ فتاة بخديها الأسيلين اللذين يقف عليهما البصر الحائر ساعة لا يرتد ولا يطرف؛ فتاة بشفتيها الرقيقتين المفترجتين دائما عن ثغر قل أن تجد له مثيلا حتى فيما يتخيل الشاعر ويصور المصور؛ فتاة بحديثها الصادر عن قلبها النابض بالعواطف، ووجدانها الجائش بالأحاسيس، وذهنها الزاخر بالمعاني؛ فتاة بدلالها الطاغي الذي يتمثل في حديثها المرسل فيتشكل في فيها كل شكل، ويتلون في صوتها كل لون. وهي مستعدة قوية من الشهوات والنزوات والميول، لا تحتملها أعصابها ولا تسعها قواها؛ فهي دائما تطلب، وهي أبدا لا تكتفي. هوايتها أن تحب، ولذتها أن تغامر، وسعادتها أن تتذوق، ونشوتها أن تغير. أجمل ما في حياتها موعد مضروب، وموعود منتظر، وساعة أو ساعتان في مطعم أو ملهى أو حديقة أو بهو جميل. تعيش يوما بيوم؛ فلا تذكر الأمس ولا تفكر في الغد. ويومها كله زينة تتخذ، وجولة في محلات الأزياء تجال، وصديقة تستقبل، وزيارة ترد، وحفلة تقام، وسهرة تقضى؛ وفيما بين ذلك عود تحتضنه،

وغناء توقعه عليه

— ٢ —

تعارف الرجلان على شاطئ (جليم) من رمل الإسكندرية عام ١٩٢٣ . عرف أحدهما بالآخر صديق مشترك . ولم يكد الصديقان أن يتعارفا حتى تآلفا . وجد كل واحد منهما في أخيه مارتضيه : هنا تمثال من الحسن يلذ الفنان أن يراه ؛ وهناك شدو من شعر القلب يلذ الإنسان أن يسمعه . وبين الصديقين فضلا عن ذلك مشابه في رقة القلب وحياء الطبع وسلامة النية والتزايل من الناس . فكانا يجدان في لقائهما وحديثهما من المتاع والأنس ما لا يجدانه في ملهى من ملاهي المصيف ، ولا في مجلس من مجالس السمر . لذلك جددا اللقاء ، وأطالا الاجتماع حتى توثقت بينهما الصلة وتمكنت الألفة ، فصار كل منهما للآخر حاجة نفسه ومصدر أنسه . ثم انتهى المصيف فعاد الصديقان إلى القاهرة في يومين متعاقبين كل واحد مع أسرته ، وعاد لقاؤهما في مجامع القاهرة ، على النحو الذي كان في ملاهي الإسكندرية .

كان أمين الصديق الأصغر يزور كل يوم حافظا الصديق الأكبر ، فيقضيان الأماسي معا في سينما أو في قهوة . وكان أمين كلما أقبل إلى صديقه كل مساء يقول : جئت من بيت عمي ، وتغديت على مائدة عمي ، وأخذت بيدي من صندوق عمي .

فسأله حافظ ذات مرة : أتسكن مع عمك ، فإني لا أراك تتحدث إلا عن بيته ، ولا تتكلم إلا من تليفونه !

فأجابه : إني أسكن مع أبي ، ولكني أعيش مع عمي .

فقال حافظ : ما عهدت أحدا يفضل عمه على أبيه ، ولا زوجة عمه على أمه .

فقال وهو يضحك : لا أفضل عميّ على أبويّ ، وإنما أفضل خطوبتي عليهم جميعا ، وهي ابنة عمي . وقد أحببتها حبا ملأ شغاف قلبي ، وشغلني عن كل الناس إلا عنك . فأنا أقضي معها وقت فراغي ولا أكاد أتركها إلا إليك . وهي تعرفك بالسماع ، وكثيرا ما تحدثنا عنك . وأخوها تلميذ لك فلا يبرح لاهجا بذكرك . وأقرب الأيام هذا اليوم ، فقد سألتني أن أستزيرك . ويسرني أن تنعم لها بما طلبت .

فقال له : ولم لا تؤجل زيارتي إياكما إلى أن تكونا في بيت الزوجية ؟

فقال أمين : أوه ! إن بيننا وبين الزفاف سنة طويلة . ويصعب علي أن أقسم وقتي بينها وبينك ؛ ولكنك إذا عرفتها وعرفتك ، ضمنت ألا أفترق عنها ولا عنك .

* * *

وفي عصر يوم من أيام الخميس ركب الصديقان الترام إلى منزل العم . وكان الشارع الذي نزلا في بعض محطاته شارع

الجيزة ، فساراً فيه . وكانت أواخر الصيف قد اتصلت بأوائل الخريف في جو سبتمبر ، فكسرت من حره ، وعدلت من نسيمه ، كالصهباء تشعشعها بالماء فتكون منهما النشوة ولا يكون فيهما الخبل . وكان شجر الدردار المنضد على جانب الطريق لا يزال ممسكاً بأوراقه العريضة ، فلم تسقطها بعد رياح أكتوبر . وكان النيل بوجهه المتورد يتراءى من بين الشجر ومن خلال القصور جميلاً جليلاً ، فيغرى السائر بالوقوف ليتملى ويتأمل . فقال الأديب للطبيب : مل بنا إلى الشاطئ ، نستمتع قليلاً بجمال النهر ؛ فإني — كسائر القاهريين — أكاد أنسى أن النيل يجرى في القاهرة ؛ لأننا لا نراه إلا عابرين مسرعين على جسوره ، أو سائرين ذاهلين على شواطئه .

فقال الطبيب للأديب وكأنه لا يشعر بما شعر ولا يفكر فيما قال : هذا هو بيت عمى . وها هي ذي (عقيلة) واقفة في الشرفة تنظر وتنتظر . فاطلع الأديب فرأى فتاة قصداً في النساء ، لاهي قصيرة ولا طويلة ، ولا هي سمينة ولا نحيلة . ترتدى حلة من قطعتين : عليا حمراء في لون القرمز ، وسفلى بيضاء في لون الزنبق . وبجانبها كلب صغير أبيض يطل من فرجة بين قضبان الدرابزين . فلما رأتهما ابتسمت وانكفأت إلى الداخل لتلقاهما لدى الباب

تمارقا في الصالة ، ثم تقدمتهما إلى الصالون . وأقبل الخادم بأقداح الشاى وأطباق الحلوى . وبدأ الحديث ؛ ولكنهم لم يتجاذبوا أطرافه ، لأن الحديث لم يكن له إلا طرف واحد أمسكت به عقيلة طول الوقت . وظل الزائران يستمعان ويوافقان ؛ لأن حافظاً ثقل لسانه الحياء ؛ ولأن أميناً بطع كلامه الهي . ثم هم الصديقان بالانصراف فودعتهما عقيلة لدى المصعد وهي تقول لحافظ بلهجة الإصرار والتوكيد : أرجو أن تزورنا في أي يوم ومن غير دعوة . ولكن حافظاً لم يستطع أن يحقق هذا الرجاء الأول لأنه سافر إلى باريس في رحلة تستغرق العام كله

— ٣ —

تتابعت الرسائل من الأديب الكاتب إلى الطبيب الخاطب تحمل أجمل الأحاديث وأرقها عن مفاتن باريس ومتاحفها وحدائقها ومسارحها وملاهيها وعن كل جميل فيها . وكانت الأجوبة عن هذه الرسائل تتوالى كذلك حاملة صدى تلك الأحاديث وأثرها في نفس أمين ، ورجاءه إلى صديقه أن يكثر منها ويطيل فيها . وكان حافظ قد فطن إلى أن الروح التي تنبث في هذه الرسائل ليست روح أمين . روح من ؟ لا يدرى ؛ ولكنه يعتقد على أي حال أن هنالك (سيرانو) بجانب (كرستيان) . فاحتفل لرسائله أشد

الاحتفال ، وجعلها أشبه باليوميات يسجل فيها مشاهد اليوم وخواطر الساعة ، وما يتعاقب على نفسه الشاعرة من رضا وسخط ، وانبساط وانقباض ، وإعجاب وإنكار ، وميل ونفور . ولبى رغبة صديقه فأسهب بعض الإسهاب في وصف من لاقى من أوانس (البلفار) وغواني (مونمارتر)

وألقى إليه البريد ذات يوم رسائل مصر ففض أول ما فض غلاف أمين لأنه يعرفه بخطه ، فإذا بداخله رسالتان : رسالة طويلة بإمضاء أمين ، ورسالة صغيرة بإمضاء عقيلة . فتناول رسالة الآنسة وأخذ يقلب فيها النظر : في إمضائها المائل ، وخطها المنمق ، وورقها الفاخر ، وشكلها الأنيق ، ولونها الورد . ثم عاد يقرأ :

« عزيزي صديق ابن عمي !

ولى العذر إذا لم أقل صديقي ، فإنك أغفلت ذكري في رسائلك التي أقرأها كلمة كلمة ، وأحتفظ بها رسالة رسالة . ولا أدعي أن من حقي عليك أن تسلم علي ، فإن زيارة واحدة لا تنشئ بين الزائر والمزور صداقة ؛ ولكني حسبت أن صداقتك لأمين هي من السعة والعمق بحيث تشمل مخطوبته على الأقل . على أني أعرفك منذ زمن طويل مما قرأت لك وسمعت عنك . وهب أن المعرفة بيننا كانت قديمة وثيقة ثم نسيت أن تحيينا على البعد ، فإننا نعذرك كل العذر ، لأن من في باريس لا يذكر من في القاهرة ، ومن يصبح بين غواني (مونبرناس) ويمسي بين حسان (سان جرمان) ، لا يجد وقتاً للتفكير في ساكني شارع الجيزة أو قاطني حي المنيرة .

أرجو ألا تحمل كلامي على محمل العتاب ، فليس لي أن أعتب عليك . احمله إن شئت على محمل الاستجداء ، فإني أجد في قراءة رسائلك لذة لا أجدها في متعة أخرى ! فإذا كتبت إلى كما تكتب إلى أمين ، تصبح الرسالة رسالتين ، والسعادة سعادتين . وما أظنك تبخل على إنسان بلذة لا تؤلمك ، ومنفعة لا تضرك »

ابنة عم صديقك
عقيلة

فلما فرغ حافظ من قراءة هذه الرسالة بدءاً وعوداً ، قرأ رسالة أمين فوجده يرجو ويلح في الرجاء أن يكتب إلى عقيلة ولو على حساب الكتابة إليه ، ويفضل أن يحدثها عن مباهج النهار وملاهي الليل ، وعما يتصل بالمرأة الباريسية من معروف ومنكر ؛ فلم يسع صديق الخطيبين إلا أن يلبي مبتغاهما في الحدود التي يحدها حياؤه ويفرضها أدبه ؛ ولكنه كان يحرص كل الحرص على أن يدرج الرسالتين في غلاف واحد .

لا أريد أن أعوق القارئ عن حوادث القصة برواية ما كتب إليها وما كتبت إليه ، فإن ذلك وإن لذ وأمتع

لا يضيف إلى الموضـوع إلا مرائى تختفى وراء السطور تـكشف للذهن اللمـاح طرف النقـاب عن وجه المستقبل . فلنمد مع حافظ من باريس — بعد أن قضى حاجته منهـا — إلى الإسكندرية فى أواخر أغسطس ليجـد فى استقباله على البناء أمينا وعقيلة

وكان عم أمين أو أبو عقيلة يصطاف على عادته من كل عام فى شاطئ (جليم) فاقترحا على حافظ أن ينزل فى فندق (سمربلاس) ليكونوا جميعا فى حى واحـد . ولم يريدا أن يتركاه لنفسه تلك الليـلة ، فصحباه إلى غرفته ، وشاركاه فى عشـائه ، ولازماه فى سهرته . وكان مدار الحديث فى هذه الأمسية ، وما تلاها من أماسى ، على ما رأى حافظ وما سمع فى مدينـة النور من عجـائب الحضارة وغرائب الناس . كان الخطيبان يريدان أن يسمعا ذلك من فمه بعد أن قرآه بقلمه . وكانت عقيـلة تسأل وحافظ يجيب وأمين يسمع . وكانت الرسـائل التى تبادلها الأصدقاء الثلاثة فى ثمانية وعشرين أسبوعا قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيـلة تطمئن إلى الصديق كما تطمئن إلى الخاطب ، فتنبسط فى الكلام وتتساهل فى الدعابة ، وتحول التيار الـكهربى حيث تشاء برفع الـكبس من هنا ووضعه هناك ؛ فترى أن أثره فى الخشب غير أثره فى المعدن ، وأن فعله فى نفس أمين غير فعله فى نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب . وكان أمين يجد فى تمكن الألفة بين خطيبته وصديقه رضا قلبه وغبطة نفسه ؛ لأنه يرى فى تودد عقيلة إلى حافظ إعجابا منها بصحة رأيه فى انتخابه للصديق ، وفى تحبب حافظ إلى عقيلة ثناء منه على حسن ذوقه فى اختياره للزوجة . ولم تـكن ملاطفة حافظ لخطيبة صديقه عرضا من أعراض رغبة ناشئة ، ولا أثرا من آثار عاطفة حبيسة ؛ وإنما كان رجلا قريب عهد بالحياة الباريسية التى تجعل التلطف بالمرأة والتظرف لها أدبا مرعيا من آداب السلوك . وهو بطبعه رقيق الحاشية ، يلاين ولا يخاشن ، ويتبسم ولا يتجهم . أما عقيلة فكانت تنشد شيئا فوجدته فيه . كانت تريد أن تسمع من يقول لها : أنت جميلة ! وإن فيك ما ليس فى أترابك من عذوبة الروح وصفاء الحس وقوة الجاذبيـة . وكانت تحب أن ترى أثر فتنتها فى عين تنظر بإعجاب ، وشفة تفتر عن دهش ، ولسان يهتف فى خشوع . وكانت تود لو يكون بجانبها من إذا أعجبت بمنظر من مناظر الطبيعة ساهم فى هذا الإعجاب ؛ وإذا تحدثت فى موقف من مواقف السينما شارك فى هذا الحديث ، وإذا شعرت بعاطفة من عواطف القلب استجاب إلى هذا الشعور .

فلما قرأت لحافظ وهو في باريس، وتحدثت إليه وهو في الإسكندرية، وتقلبت معه على شواطئ (الرمل)، استقرت نفسها بعد تموج بعيد، وسكن طرفها بعد نظر طويل، وقطعت نفسها عن أهلها وصواحبها واكتفت به، يرتادان الشواطئ والحدائق طول النهار، ويترددان إلى المسارح والملاهي أكثر الليل، وأمين يرافقهما إلى كل مكان، ويوافقهما على كل اقتراح؛ فكان الثلاثة أشبه بالأقانيم المسيحية الثلاثة: متحدين في الروح، متعددين في الجسد: فحافظ هو الأب، وأمين هو الابن، وعقيلة هي روح القدس!

— ٤ —

أقبل سبتمبر وهو الشهر الذي يعود فيه الموظفون من الإجازة ليستأنفوا كارهين العمل في الدواوين. ويعود فيه الطلاب والتلاميذ من العطلة ليستعدوا خائفين لامتحان الدور الثاني، أو ليقدموا طلباتهم إلى الجامعات أو إلى المدارس. ويعود فيه أعيان الفلاحين من المصيف ليتأهبوا راجين لجمع القطن وضم الأرز وبذر البرسيم. فخلت أكثر الأكشاك، وفترت حركة الشواطئ، وخفت زحمة الكرنيش، وهدأت حياة البحر، فلم يبق على بلاجات الرمل إلا المترفون الذين لا تحفزهم ضرورات العمل إلى السفر، وإلا السكندريون الذين يبدأون على عادتهم الاصطياف في هذا الشهر.

وعادت أسرة عقيلة مع العائدين، فاستبدلت حالة بحالة، وتحولت من حياة إلى حياة. عاد الأب إلى أعمال المكتب، والأم إلى شؤون البيت، والأولاد إلى واجبات المدرسة، وعقيلة إلى الإبرة والكتاب، وإلى الزيارة والاستقبال، وإلى النزهة والغناء. وسرعان ما اطمأن كل إلى نحوه الأول، واستقر على وضعه المألوف، إلا عقيلة لم تجد في بيت الجيزة ما كانت تجده في الرمل من رحب المجال، ولم تلق في شارع فؤاد ما كانت تذوقه قديما من حلاوة الأنس؛ تحس في عينيها كلل الإنسان، وتفقد في قلبها كل شيء، وتقبل على عملها كل حديث، وأدركت أن علة هذا التغير إنما هو فقدها الثالوث على الحال التي كانت عليها في الإسكندرية. ولكن كيف يتسنى لها في غير المصيف أن تمرح طول النهار، وأن تلهو أكثر الليل؟ تستطيع ذلك إلى حد ما مع أمين، لأنه ابن عمها وأخوها في الحاضر، ولأنه خطيبها وزوجها في المستقبل. ولكن الأمر بينها وبين حافظ جد مختلف: لا تصله بها صلة من قرابة، ولا تصله بأبيها صلة من صداقة، وصلته بأمين وإن كانت وثيقة لا ترفع الحجب حتى ترى بجانبه في كل ملهى، ولا تدفع الحواجز حتى تذهب في صحبته إلى كل مكان. والولاية عليها لا

لأبيها . والتقاليد الإسلامية لاتفك متبعة في الأسر الوسطى . أما التفكير في أن تقنع بلقائه مرة أو مرتين أو ثلاثا في الأسبوع فذلك ما لم يخطر ببالها ولم تتداعى المعاني والى الفروض . لقد أصبح وجوده في حياتها جزءاً من وجودها هي في الحياة ، فلا تتصور أن تمضي من غيره ، ولا أن تبقى بطيب العيش مع غيره . وإذن فلا سبيل إلا أن تدخل على أبيها وهو يتمزز فنجال الشاي مع أمها في ساعة صفو وتقول :

بابا ! إنك تعلم أن اللغة الفرنسية من ألزم العناصر لثقافة الفتاة المصرية ، وأن القدر الذي تلقته منها في المدرسة لا يكفي للحديث في مجتمع راق ، ولا للقراءة في كتاب قيم . وأرى إذا سمحت أن أعود إلى تعلمها بعزم أقوى وعلى منهج أتم ؛ فإني تعرضت مراراً للخجل الشديد أمام صديقاتي المتخرجات في (الميردي ديو) حين يحادثنني بها فأتلعثم أو أخطئ أو أتوقف

وقال أبوها ، وكان قليلا ما يرد لها طلبا : لا بأس يا بنتي ! اسمعي ما تحبين .

وقالت أمها ، وكانت كثيراً ما تمكنها من نفسها : إن المدموازيل هيلين التي كانت تعلمك الموسيقى تستطيع أن تعلمك الفرنسية فاطلبيها وكلميها

فقالت عقيلة وقد سرتها موافقة أبويها : عفواً يا ماما ! إني أريد أن أتوسع في نحو هذه اللغة وصرفها ، وأن أتضلع من بيانها وأدبها . والمدموازيل هيلين لا تعرف من الفرنسية إلا الحديث الدارج والكلام المألوف . وإن لابن عمي صديقا توفر حظه من هذه اللغة ؛ وقد قال أمين حين حدثته في هذا الأمر إنه يتمنى أن يقضي كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر

قالت ذلك وهي لم تتحدث إلى أمين عنه ، ولم تعرف رأي حافظ فيه ؛ لأنها تعلم أن أمين طوع لها في كل شيء ، وأن حافظاً لا يتشدد على أمين فيما يريد . وكان رأيها في الصديقين صحيحاً . فبدأت الدروس بعد يومين اثنين في المكتب المنعزل من بيت عقيلة ، وفي الساعة الخامسة من كل يوم

— ٥ —

بدأت الدروس طبيعية في الأسبوع الأول كما تكون بين معلم يحب أن يعلم ، وتلميذة تريد أن تتعلم ؛ لأن الأب كان يدخل عليهما فيسلم ويتكلم ، والأخ كان يلم بهما فيسمع ويستفيد ، والخاطب كان يجلس إليهما فيشارك أو ينظر . وخشيت عقيلة أن يستمر الأمر على هذه الحال ، فرغبت أن يكون الدرس في الصبح حين يكون الأب في ديوانه ، والأخ في مدرسته ، والخاطب في مكتبه ؛ فحققوا لها هذه الرغبة . وقد ساعد على تحقيقها أن المعلم كان لحسن الحظ أو لسوئه فارغا من العمل

فى الساعات الثلاث الأولى من اليوم الدرسى أكثر الأسبوع .

وفى السكون الشامل والخلوة الصحيحة مضت الدروس فتية جدية أول الأمر ؛ ثم ظهرت النية وبرح الخفاء فتحولت إلى حديث صرف أقله بالفرنسية وأكثره بالعربية ، ويشقق بعضه من بعض ، فيتناول أخبار الأسر ومغامرات الأوانس ورحلات المراقص ونزعات العصر ؛ فيحاول المعلم أن يحجز سيله الدافق بحمل التلميذة على أن تتحدث بالفرنسية ؛ ولكن الفرنسية لا تواتيها فتعود إلى العربية ، لأن هواها أن تتكلم لا أن تتعلم . وكانت تدس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة فيتجاهلها المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ؛ فتعود هى إليها وتلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على رحيق الزهرة كلما نحيها أحد عنه .

وبرم المعلم بهذه الدروس التى يتلقاها ولا يلقيها ، فقرر فى نفسه أن يصارح التلميذة فى اليوم التالى بأنها تخسر الوقت ولا تكسب التعلم ، وأن من الخير إذا كان همها الحديث أن تكتفى بما يجرى منه بين زائريهم فى مساء كل خميس ويوم كل جمعة

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، فلم يكد يحييها ويجلس حتى قالت له وهى تنظر بفتور ، وتبسم فى دلال : « اسمح يا أستاذى ! إن درس اليوم سآخذه فى الطريق ؛ فإن لى عند الخياط فستاناً أريد أن أجربه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها ؛ ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ »

فقال لها حافظ : « ومتى كان لأحد عندك رأى ؟ هبى أن الدرس على المكتب بخير منه فى الطريق مادام الأمر لا يتعدى « الدردشة » وكانت قد ارتدت من قبل ثوب الخروج فنهضت ونهض على أثرها ، فذهبا إلى الخياط فى شارع قصر النيل ، ومرا على المصور فى شارع عبد العزيز ، ثم اقترحت عقيلة على حافظ أن يجلسا قليلا فى محل معين من محلات الحلوى تفضله على غيره لنظافته وهدوئه . فلما دخلاه انتبذت ناحية فى ركن خال من أركان المحل فجلسا فيه . ولو جلسا إلى أى مائدة من الموائد لما حرك السكون من حولها أحد ؛ لأن خلو الأمكنة العامة فى مثل هذه الساعة من النهار أمر مألوف ؛ والخلوة فى هذا المكان على الأخص مضمونة فى كل وقت لانزوائه عن ضجة الناس فى شارع البوا كى .

وكانت النُّدل فى هذا المحل من الفتيات الحسان فى زيهن التقليدى الأسود . والفتيات بالطبع يحترمن احتلاء الرجل بالمرأة ؛ فلا نظرة فضول ولا علامة تعجب . أما الزوجان اللذان كانا يجلسان فى الركن المقابل فكانا منهمكين فى حديث غزلى حاد صرفهما عن

الدنيا كلها لا عن الحل وحده . إذن ليس هناك مايدعو عقيلة إلى التحفظ فى الجلوس، أو يحملها على التورية فى الحديث ؛ فوضعت الشوكة فى طبق الحلوى ، وفتحت حقيبة يدها فمسحت شفتيها الرقيقتين بالمنديل الأبيض ، ومرت عليهما بالإصبع الأحمر ؛ ثم أثبتت عينيها فى عيني معلمها وعادت إلى حديثها تقول : « لنعد إلى موضوع الدرس الذى بدأته فى الطريق . أنا أوافقك على أنى أجعل الدرس وسيلة الحديث . وماذا فى هذا مما تنكره ؟ ولم لا يكون الحديث المرسل وسيلة إلى الدرس ؟ أليست فيه جملة تصوب أوفكرة تصحح أو مشكلة تحل ؟ على أنك أذكى من أن موه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك ؛ فلما قرأتك أحببتك ؛ ولما خالطتك عشقتك . وجدت فيك كل ما أبتغيه من رجل ، ووجدت منك لى كل ما أرتجيه فى حبيب : فذوقك وذوقى متحدان ، وشعورك وشعورى متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان . فلك زوجة لا تفهمك ، ولى خاطب لا يفهمنى . وفيك حساسية تتعبك ، وفى حساسية تتعبنى . ولا أخفى عليك ، فقد كان لى نزوات مع الشبان كنت أبتغى من ورائها نشدان من أحب ، ووجدان من أخطب . ولكنى عدت بعد طول الجولان والدوران أن القرين الصالح لا يكون فى الأماكن التى أزورها ، ولا فى الدورات التى أدورها ؛ فقنعت بابن عمى : وهو كما تعرف يملأ العين ولا يملأ القلب ، ويرضى العقل ولا يرضى الذوق . وخير مافيه خلق صريح ، وضمير نقى ، ولسان عف ، وثقة بمن يحب لا تجوز عليها ريبة ولا تنال منها وشاية . فأنا لا أحبه ولا أبغضه ، ولا أقبله ولا أرفضه . ولكنى منذ عرفتك ضاقت نفسى بهذه القناعة ، وعادت مرة أخرى تتطلع إلى حياة النور والشعور والحب : فوقفت عندك وحامت عليك . ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب إلى أم تنبو على ؟

قالت ذلك ووضعت على المائدة مرفقيها ، واستندت ذقنها بكفيها ، ثم حدقت فى وجه حافظ وسكتت تنتظر مايقول . وكان حافظ يستمع إليها وهو ساهم واجم مطرق ؛ لا يقاطع ولا يراجع ولا يعترض . فلما فرغت من حديثها رفع إليها طرفه وقال : يظهر ياعقيلة أنك ذكرت نفسك ونسيت غيرك . نسيت أنك مخطوبة وبنت عم ، وأنى متزوج وصديق (أمين) . فهمت عقيلة بأن تجيب لولا أن قال لها حافظ : اسمعى إلى كما سمعت إليك ، ولا تراجعينى قبل أن أفرغ . إن أمينا صديق وصفيى ، ومن حقه على أن أحفظ ذمته وأرعى حرمته . ولقد لابسته طويلا فما ذممت عهده ولا اتهمت وده . ثم إنى عرفتك لأنى عرفته ، وصادقتك لأنى

صادقته . وما دخلت بينك وبينه إلا لأوثق الألفة بين قلبك النافر وقلبه المطمئن : فقد شكا إلى كثيراً طول إعراضك عنه وسوء رأيك فيه . وما أراك تكرهين منه إلا حسن نيته وخلوص طويته واستقامة خلقه . وهل يضير الرجل ألا يكون فكه الطبع وهو صاحب جد ، وألا يكون لبق الحديث وهو صاحب عمل ؟ إن الفتاة التي تعرف معنى الزوجية وتدرك سر الأمومة لا تجعل من بيتها منتدى ولا مرقصاً ولا حانة ، ولا تطلب من زوجها أن يكون شاعراً يطارحها الغزل ، ولا سميراً يناقلها الحديث ، ولا نديماً يقارعها الكأس ؛ وإنما تجعل من بيتها عشاً يفيض بالحنان والحب ، وحرماً يشيع الراحة والسكينة ؛ وتطلب من زوجها أن يكون عاملاً يكسبها الثروة ، وفاضلاً ينيلها الشرف ، ومخلصاً يذيقها السعادة . وأمين جدير بأن يكون هذا الرجل ، إذا كنت أنت جديرة بأن تهيئي له ذلك البيت

ثم سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التي تجدينها في قلبك لي ، وأنا أيضاً لا أكذبك قد شعرت بأن نبتة من هذه الفسيلة الخفاء قد نبتت في قلبي لك ؛ ولكنني أحاول جاهداً أن أمنع عنها الغذاء والري حتى تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أوكد بينهما الصلة ، ولا أن أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة . وماذا يقول الناس عني ؟ ألا يقولون : صدق المثل « أرسلته في حاجة فتزوج » ؟ وماذا يقول الناس عنك ؟ ألا يقولون : هرب تخرج من قلب لتدخل في قلب ، كما تخرج من ثوب لتدخل في ثوب ؟

دخلي المشكلة باسم صداقتي وبريء ولطفي . واعملي على أن تظل السعادة التي بينك وبيني علاقة صديق بصديق ، أو علاقة أخت بأخ ، وستجدين في الحب الذي يخلصه لك أمين ، وفي الصداقة التي تخصك بها حافظ ، متعة الروح وسكينة القلب وبهجة العيش

فقالت عقيلة : هل أفصحت عن كل ما في نفسك ؟

فقال لها : بالقدر الذي يعادل ما قلت .

فقالت : أما كلامك فإذا قسناه بقياس العقل والمنطق فلا اعتراض عليه ولا معارضة فيه . وأما إذا قسناه بقياس القلب والشعور انقطعت حجته ووهى دليله . إن الحب لا يخضع لمبدأ ولا يستكين لقيود . ومن يريد أن يطبق قواعد الأخلاق على الحب ، كان كمن يريد أن يطبق مواد القانون على الجنون . فأنا أحببتك ولكني . وفي سبيل هذا الحب لا أتردد في قطع كل صلة ، وإبعاد كل قرابة ، وإنكار كل عرف

فقال لها : وما ثمرة هذا الحب إذا لم يفض إلى زواج ؟

فقالت : أنا أريد هذا الزواج . فإذا لم ترده أنت فلتكن ثمرة الحب كما تكون . تعهدني بشرفك أن تظل دائماً معي كما يكون الزوج مع زوجته ، أو الحبيب مع حبيبته . ولا أبالي بعد ذلك أن تكون علاقتي بك عقداً عند مأذون ، أو عهداً عند شيطان . وأعاهدك بشرفي أن أظل الأمين المخلصة الوفية والزوجة المطيعة . ثم رفعت يدها اليمنى وحركت سبابتها في الهواء منذرة وقالت : « إني أريدك يا حافظ بأي ثمن ! فإذا بدا لك يوماً أن تقف دون إرادتي تركت لك الوجود كله ! »

فقال حافظ وهو يتكلف الابتسام ويتصنع الهدوء : « عبث طفولة ونزوة شباب ! ومازلت قوي الرجاء في أن تراجعي نفسك وتشاوري عقلك فيما قلتُ وقلتِ ! »

وكان عقربا الساعة قد اجتمعا عند الساعة الثانية عشرة ، فقالت وهي تنظر في ساعة يدها وتشير إلى العقربين المجتمعين : « يجب أن نظل هكذا وعقرب الثواني معنا ! » ثم نهضت ونهض حافظ وركبا سيارة لبثا فيها صامتين مفكرين حتى بلغت بهما البيت فودعها ثم رجع

٦

لم يشأ حافظ أن يغير من نظامه ولا أن يخرج عن عادته ؛ فقد رأى من الحكمة أن يعالج الأمر باللين ، ويستعين على الداء بالسكون حتى ينكشف الأمر . فذهب إلى عقيلة في موعد الدرس فوجدها مضطربة البال ، كاسفة الوجه ، محمرة العين ، لا تستقر على حال من القلق . كانت تخشى ألا يجيء ؛ لأن هيئته في السيارة ولهجته عند الوداع لم تبعثا في نفسها الطمأنينة ، فلم تكد تخلو إليه في المكتب حتى أقبلت عليه والدمع يترقرق في عينيها ، وأمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزاً رفيقاً وقالت له : لك الله يا حافظ ! لقد أسهرت جفني حتى الصباح . كان شيطاني يوسوس في صدري بأنك لا تجيء !

ثم أدنت صدرها من صدره كأنها تريد أن تعانقه ، فردها بيديه رداً ليناً ؛ ثم أجلسها على الكنبة وجلس بجانبها يريد أن يسكن من روعها . ولكنها انفجرت بالبكاء ، وألقت بنفسها عليه ، فارتاع حافظ وحاول أن ينحيها عنه لينهض مخافة أن يدخل عليهما المكتب داخل سمع البكاء ، ولكنها سقطت بساعديها على ركبته وأكبت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهي تقول في نحيب وضراعة : « لا تفارقني يا حافظ ! قل لي إنك لي ! أنت أول من أحببت فلا تفجعني في حبي الأول ! ليس ما بي عبث طفولة ولا نزوة شباب كما قلت : إنما هو الحب الذي طالما سمعت به وقرأت عنه . عذبت كثيراً من الشبان عن عبث ولهو فانتقم الله لهم مني .

عدنى بأن تكون لى على أى حال . وإذا كان أمين هو العقبة فإنى سأفسخ خطبته ، وأنكر قرابته » . ودخلت الخادمة تحمل القهوة وعقيلة على هذا الوضع ، فتظاهرت بالإغماء ، وأخذ حافظ يربت خدها ويدلك يدها . وطلب من الخادمة شيئا من روح النشادر أو ماء الكولونيا فذهبت مسرعة ، وجاءت الأم وهى تحمل المنبهات ، فاحتضنت ابنتها على صدرها الرءوم وهى تقول لحافظ : « توقعت أن تصبح عقيلة مريضة ؛ فقد باتت ليلتها تتململ ، وتتقلب ، وتخرج من الغرفة إلى الشرفة ؛ ثم تدخل من الشرفة إلى الغرفة ! » ثم بدا من عقيلة مادل على أنها أفاقت ، فقادتها أمها إلى الفراش . وانتهى الدرس وانصرف المعلم .

* * *

خرج حافظ كالحالم لايدرى كيف يسير ولا أين يتجه . لم يكن يحسب أن الحب قد برح بعقيلة إلى هذا الحد وفى هذه السرعة . وعزا هذا الطغيان الغرامى العاتى إلى تأنيبه عليها وتحفظه معها وتجافيه عنها . فإن الفتاة العاطفية المدللة التى تعودت أن ينزل على حكمها الأهل ، وتجرى فى هواها القلوب ، لاتطيق أن ينصرف عنها وجه ، أو يمتنع عليها طلب ، أو يطيش لها سهم .

ولكنه لايستطيع أن يفعل غير مافعل . الأمر بينها وبينه واضح : إما أن يتزوجها فتكون كارثة على صديقه ، وإما أن يخادعها فتكون نكبة على ضميره ! فأما الخطة الثالثة وهى الصداقة البريئة فقد ردتها بعنف ورفضتها بعناد . على أنه قدر فى نفسه أنها إذا يئست من الزواج والمخادنة رجعت بالطبع إلى الصداقة . واليأس وإن كرب الصدر وصدع الفؤاد ينتهى بعد زمن قصير أو طويل إلى الراحة .

وكان قد رجع إلى منزله ، فجلس على مكتبه وأخذ يكتب إليها هذه الرسالة :

عزيزتى عقيلة :

لقد كان من فوق احتمالى أن أراك تبكين هذا البكاء الحار بين يدى فى هذا الصباح بعد أن عانيت من أمثالها كابدت من الأرق والقلق طول الليل . لا أدرى كيف تطور الأمر بيننا هذا التطور الذى يكدر الصفو ، ويفرق الشمل ، ويمزق هذا الثالوث الذى جمعه الود والإخلاص . ليس لك يد فى كان ، إنما هو القدر الذى يصيب بالحب كما يصيب بالحمى ، ويبتلى بالهوى كما يبتلى بالعمى . ولقد شبهتنا فى حديثك بالأمس نحن الثلاثة بعقرب الساعات وعقرب الدقائق وعقرب الثوانى فى تمام الساعة الثانية عشرة ، يجتمع اثنان فى هدوء ، ويفترق الثالث فى اضطراب . وقد كنت أنا قد شبهتنا من قبل بالأقانيم الثلاثة التى يتكون منها واحد فى رأى المسيحية ، وهى الآب والابن وروح القدس وأستطيع بعد

أن سمعت منك ما سمعت فى محل الحلوى وفى مكتب الدرس أن أشبهنا أيضا بثلاثة (جوتة)، وهم فرتر وكستنر وشرلوت . ومن العجيب أن الثلاثات الثلاث تتشابه فى أن واحدا منها لا بد أن يضحى فى نفسه ، ليضمن السلامة لغيره . فمقرب التوافق كتب عليه أن يدور منعزلا فى مداره الخاص لينتظم عمل الساعة . والابن صلب على قول النصارى ليكفر عن خطيئة آدم . وفرتر انتحر على رواية جوتة ليوفر السعادة لحبيبته ولصديقه . وأنا يا عقيلة لا أريد ولا أنت تريدين أن يموت واحد منا . أريد وأود لو تريدين أن يعيش ثلاثتنا فى ظلال الصداقة الخالصة وادعين عاملين لا يدخل بيننا شيطان ، ولا يشوب حبنا ريبة . ونسأل من الخير أن تقطع الدرس من الغد لتستأنفه حين يثوب الهدوء وتؤوب العافية . أما زيارتى إياك فلن تنقطع . سأزورك مع أمين فى كل ليلتين ما أسعفتنى الفرصة و ... الحال . وسأكون لك ولخطيبك على الأبد الأخ الأوفى والصديق الأمين

حافظ

ثم غلف الرسالة وبعث بها مع خادمه إلى منزل عقيلة .

وفى صباح اليوم التالى زاره فى بيته أمين وأخبره وهو جزع مضطرب أن حالة ابنة عمه سيئة ، فقد قضت ليلة أمس الأول على غير عادتها ساهرة تتردد بين الغرفة والشرفة ، تقرأ ساعة وتفكر أخرى ، فأصابها برد شديد بلغ الرئة . وقد تركتها بين يدى الطبيب وحرارتها تسع وثلاثون ، لأستحثك إليها فقد طلبتك

جزع حافظ لهذا الخبر وأشفق على عقيلة من عقبى هذا الداء . وأسرع فارتدى ثيابه ثم انطلق مع صديقه إلى منزل عمه .

كانت عقيلة حين دخل عليها الصديقان مستلقية على ظهرها فى الفراش وعلى جبينها كيس الثلج ، ومن حولها أمها وبعض سيدات الجيزة . فلما رأتهما أشارت إلى أمها أن تخلى لهما مكانا بجانب السرير . فانصرفت السيدات وجلس الرجلان حيث أرادت المريضة

والتفتت عقيلة إلى حافظ بقصد ... لها كيس الثلج ... وكانت عيناها وخداها يتوهجن من وقدة الحمى ... وأخذت يده فى يدها وقالت : قرأت رسالتك مرارا حتى وعيت ما فيها ، ثم دسستها تحت الوسادة ليقرأها أمين . وإنى أشكر لك ما أفضته على صداقتى لك من نبل ، وما أسديته إلى علاقتى بأمين من فضل . وأحمد الله على أن اختارنى من بين ثلاثتنا لأكون فداء لما قد ينال صحبتكم من فرقة ، ويصيب مودتكما من فتور . وإنى بهذه التضحية مغتبطة وعنها راضية . لقد أذقتمانى فى هذه الفترة القصيرة من عمرى أنـ

ما فى هذه الحياة المرة من حب وغبطة

كانت لذتى فى أن أمرح وألهو فيهما عاماً فى هذه اللذة . وكانت سعادتى فى أن أحب وأحب مغرقاً فى هذه السعادة .

فإذا قضى الله أن أفارقكما اليوم كما يحدثنى حدس قلبى ، فلن أقول فى وحشة القبر إنى لم أنعم بالأنس ، ولا فى ظلمة العدم أنى لم أسعد بالوجود . وحسبى يا حافظ أن أحيا فى ذاكرتك وذاكرة أمين . ستجدانى ثالثكما فى كل مكان تقصدانه ، وفى كل حفل تشهدانه .

وستحس يا حافظ حين تأكل أو تشرب تلك اليد الحانية التى كانت تخفقك عن طعامك فتنبهه ، أو عن شرابك فتشربه ...

وغلبها البكاء فسالت مدامعها الحرار الغزار على خدها الملتهب . ولم تملك الصديقان عينيهما فانتحبا انتحاب الطفل . وتجلد حافظ فنفض من دمعه وقال لها وهو يمسح بظهر كفيها بباطن كفه : لا بأس عليك يا عقيلة إنك بخير . وستعافين بعد أيام فيلتئم الشمل ويستمر الدرس وتعود البهجة !

ولكن عقيلة واأسفاه كانت أصدق تعبيراً عن مشيئة القدر ؛ ففارقتهما بعد أيام وخلفتهما للحسرة التى لا تهدأ ، وللعبرة التى لا ترقأ . لا يجدان العزاء فى تسلية ولا متعة ، ولا يجتمعان إلا على ضريحها صباح كل جمعة

أحمد حسن الزيات

أقتل أم انتحار ؟

حل اللغز الذى نشر فى العدد الثانى من الرواية تحت هذا العنوان

من المستحيل أن يبقى جسم شخص ميت معتدلا وسط المقعد وبخاصة إذا كانت السيارة قد اجتازت طريقا طويلا كثير المنعرجات والفجوات . لهذا رأى المأمور الحادث قتلا لا انتحارا